# الحركة المهدية في السودان بين مفهوم الخلافة والسياسة

د. محمد عبدالرحمن عريف

باحث- جمهورية مصر العربية

**مستخلص:**

هي الحركة المهدية حضرت في بداياتها كحركة إصلاحية، ثم تحولت إلى ثورة ضد حكم الأتراك، وخاض المهدى عدة معارك ضد الأتراك في السودان. في عام 1884 أصبح المهدى سيّدًا على السودان ما عدا الجنوب، ثم أسس المهدى دولته في 26 يناير عام 1885. نجح المهدى في إقامة دولته، وأدخل فيها العنصر الأسود، وبعد مرحلة الإصلاح الديني، ثم مرحلة النضال ضد الأتراك، جاءت مرحلة الصراع مع بريطانيا. وتتمتع وقائع الثورة المهدية وحروبها بالإثارة. في هذه الدراسة نعرض للحركة المهدية في السودان بين مفهوم (الخلافة والسياسة).

**الكلمات المفتاحية:** المهدية، الحركات، الخلافة، السياسة، الثورة.

## The Mahdist movement in Sudan between the concept of caliphate and politics Preparation

**Dr.Mohammad Abd El Rahman Arif**

**Abstrct::**

It is the Mahdi movement that attended its beginnings as a reformist movement, then it turned into a revolution against the rule of the Turks, and the Mahdi fought several battles against the Turks in Sudan. In 1884, the Mahdi became master of Sudan except for the south, then the Mahdi established his state on January 26, 1885. The Mahdi succeeded in establishing his state, and he introduced the black element into it, and after the stage of religious reform, then the stage of struggle against the Turks, came the stage of conflict with Britain. The facts of the Mahdist revolution and its wars are exciting. In this study, we present the Mahdist movement in Sudan between the concept of (caliphate and politics).

## مقدمة:

المهدية واحدة من الحركات الثورية التي ظهرت في العالم العربي والإسلامي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، وهي ذات مضمون ديني سياسي. المؤسس هو محمد أحمد المهدي(1845 ـ 1885م)([1])، وُلد في جزيرة لبب جنوب مدينة دنقلة، يقال بأن نسبه ينتهي إلى الأشراف. حفظ القرآن وهو صغير ونشأ نشأة دينية متتلمذًا على الشيخ محمود الشنقيطي، سالكًا الطريقة السمَّانية القادرية الصوفية، متلقيًا عن شيخها محمد شريف نور الدائم. وفي عام 1870م استقر في جزيرة أبا([2]). تعاطف مع حركته مفكرون عرب واسلاميون بارزون منهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده([3]).

لأن الإسلام هو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله لعباده ليُنظِّم علاقتهم به سبحانه وتعالى، وينظم علاقتهم ببعضهم، وينظم علاقتهم بالكون كله([4]). فقد أنزل الله كتابًا مفصلًا تضمن قصص السابقين من الأمم، وأرسل رسوله الخاتم سيدنا محمد بن عبدالله ليبلغ رسالة ربه ويشرح ويبيّن ما أُجمل في القرآن الكريم، وكان أصحابه «رضوان الله عليهم» على درجة عالية من الفهم الواعي لتفتح مداركهم وسعة آفاقها ولطهر سرائرهم ونور بصائرهم([5])، ففهموا منهجه واستوعبوا أسلوبه في التعامل مع النص والواقع([6]).

الواقع أن الشريعة الإسلامية استطاعت أن تَفِي بحاجات المجتمعات التي حكمتها، وأن تعالج كافة المشكلات في كافة البيئات التي حلَّت بها بأعدل الحلول وأصلحها([7])، ويعود ذلك لعوامل أهمها، سعة منطقة العَفْو([8]) المتروكة قصدًا حيث تَبْرُز أدلة التشريع فيما لا نص فيه (كالقياس، والاستحسان، والاستصلاح، والعرف)([9]). فالاجتهاد في كل عصر ضرورة مُلِحّة تُحَتّمه حاجة الناس إلى الأحكام الشرعية([10]).

الحادث أن الثورة الدينية هنا لا تحظى بالمكانة المناسبة فى الوعى العربى، وهى لا تكاد تكون حاضرة فى دوائر التفكير السياسى النظرى فى العالم العربى. ربما لأنها بعيدة بحكم المكان. فهى فى السودان الذى تبدو أحداثه بعيدة عن المشرق العربى وكذلك المغرب. وبين زماننا وزمانها الكثير من الأحداث والخرائط. وربما -أيضًا- لأنها بدأت بعيدًا، وبقيت بعيدًا([11]). ذلك مع النشأة الدينية للمهدي، الذي ساح في السودان ورأى كثيرًا من الظلم والإنحرافات عن الإسلام في أنحاء البلاد.

تعود البداية إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر حيث حدث تطور مهم في علاقة العثمانيين بالسودان وذلك عندما طلب محمد علي في تلك الفترة من السلطان العثماني إصدار فرمان/قرار يخول له دخول السودان وضمه باسم الدولة العثمانية. ورغم عدم رضاء السلطان العثماني بذلك إلا أنه أصدر هذا الفرمان لمحمد علي([12]). وان كانت تطورت الأحداث وظهرت هذه الأهداف فيما بعد بصورة واضحة، ففي عام 1839 تمكن جيش محمد علي من هزيمة الجيش العثماني في موقعة نزيب في (24 يونيو 1839) ([13]).

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، حكم الخديوي إسماعيل مصر([14]). وعين الجنرال تشارلز غوردون حاكمًا على الأقاليم الاستوائية السودانية عام 1873. وبعد تخلي الخديوي إسماعيل عن العرش، وجد غوردون أن الدعم ينخفض بصورة دراماتيكية. وفي نهاية المطاف تخلى عن منصبه عام 1880، بعد أن استنفدته تمامًا سنوات العمل وتركه في وقت مبكر من العام التالي.

تطورت الأحداث فيما بعد فأرسل الحكمدار رؤوف باشا سريتين من العساكر بقيادة القومندان محمد بيك أبو السعود للقبض على المهدي، رست الباخرة ليلًا وانطلق العساكر في فوضى ولدها التسابق على اعتقال المهدي طمعًا في ترقية وعدها الحكمدار لأول من يقبض عليه. فيما بعد اعتبرت موقعة الجزيرة أبا في 12 أغسطس 1881 بداية الثورة المهدية.

التقى جيش المهدي بجيش غوردون في الخرطوم، وفي 26 يناير 1885م اشتدت المعركة وقُتِل غوردون الذي جُزَّ رأسُه وبُعِثَ به إلى المهدي الذي كان يأمل إلقاء القبض عليه حيًّا ليبادل به أحمد عرابي الذي أُجبر على مغادرة مصر إلى المنفى. وكان سقوط الخرطوم بين يدي المهدي آنذاك إيذانًا بانتهاء العهد العثماني على السودان. من يومها لم يبق للمهدي منافس حيث قام بتأسيس دولته مبتدئًا ببناء مسجده الخاص الذي تم إنهاءُ بنائه في 17جمادى الأولى 1305هـ .

إزاء هذا الكيد النصراني للإسلام والمسلمين، وأمام الكثير من الأحداث التي دلت على حقد متأصل في نفسه على الإسلام والمسلمين، قامت الثورة المهدية، داعيةً إلى بعث الأمة من جديد، وإحياء مجدها، وتطبيق نظامها الإلهي. وكان زعيم هذه الثورة ومفجر شرارتها، محمد أحمد المهدي، وأطلق صيحته الأولى (لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد)، فتجاوب معه الكثيرون[15].

لقد جاءت ثورة المهدى في بداياتها حركة إصلاحية، ثم تحولت إلى ثورة ضد حكم الأتراك، وخاض المهدى عدة معارك ضد الأتراك في السودان. في عام 1884 أصبح المهدى سيّدًا على السودان ما عدا الجنوب، ثم أسس المهدى دولته في 26 يناير عام 1885. نجح المهدى في إقامة دولته، وأدخل فيها العنصر الأسود، وبعد مرحلة الإصلاح الديني، ثم مرحلة النضال ضد الأتراك، جاءت مرحلة الصراع مع بريطانيا. وتتمتع وقائع الثورة المهدية وحروبها بالإثارة[16]. خلفه الخليفة عبدالله بن السيد محمد التعايشي والذي قاوم جيوش الاحتلال البريطاني أيضًا[17].

## أهداف الدراسة:

-التحديات الدينية التي واجهت المهدي في ثورته الدينية قبل السياسية.

- بيان أن نظام الخلافة عند المهدي لم يكن اقتباسًا مما وضعه النبي (صلي الله عليه وسلم) وإنما كان تطبيقًا لقاعدة ظهرت فيما بعد، وبذلك فإن أسس ترتيب خلفاء المهدي لم يتقيد بنظم ذلك العهد، وتعيين اشخاص معينين عند المهدي يخالف ما كان عليه في العصرين الأموي والعباسي.

- تشريح نظام الخلافة وولاية العهد في كل الجوانب في مقارنة جيدة وقراءة متأنية بين العهدين النبوي والخلفاء الراشدين وبين عهد المهدي ولتداخل المصطلحات والتشابه والتعارض.

-توضيح أن فكرة الولاية لم تضمن في الخلافة، ولقب خليفة المهدي الذي نأخذه علي علاته دون تفكير في بداية استعماله الذي لم يعرف في حياة المهدي، وإنما استعمله الأنصار بعد وفاته، بدلًا من الخليفة أو خليفة أو أمير جيش المهدي.. الخ.

## اشكالية الدراسة:

الخلافة عند المهدي، وموقع الخليفة، يكتنفه بعض الغموض، وذلك لتعارض النصوص أحيانًا. فالمهدي يميز (بين الخلافة بمعناها الوظيفي فهو يصفه بالخليفة أو خليفة الصديق عندما يقصد مرتبته في المهدي ومكانته الاجتماعية وسماته الشخصية، بينما يصفه بالنائب عنه أو الوزير عندما يقصد وظيفته في الدولة).

## الدراسات السابقة:

في بحثي لهذا الموضوع اطلعت على بحوث متعددة حسب ما سمح به الزمن وتيسر، ناقشت الاصلاح الديني، ومن هذه البحوث، التجديد والمجددون في أصول الفقه دراسة موسعة لجهود المجددين(أبي الفضل عبدالسلام بن محمد بن عبدالكريم)، وكذلك أحكام النوازل الفقهية المعاصرة (مسفر القحطاني)، وتجديد الفقه الإسلامي(جمال عطية ووهبة الزحيلي)، وبيان أثر التجديد والاجتهاد في تنمية المجتمعات الإسلامية المعاصرة (أحمد بن حمد الخليلي)، ونحو فقه ميسر معاصر(يوسف القرضاوي)، والتجديد في أصول الفقه: مشروعيته وتاريخه وإرهاصاته المعاصرة(خليفة بابكر حسن).

## تحديات بداية المهدية الدينية
## نشأة وتعليم المهدي الدينية

لقد انتقلت أسرة محمد أحمد وهو طفل إلى بلدة كرري شمال أم درمان حيث توفي والده بعد وصولهم بقليل ودفن في وادٍ عُرف باسم «وادي سيدنا» نسبة لوالدهم([18]).. وبعد وفاة والده كفله شقيقاه محمد وحامد واللذان استمرا في تجارة صناعة المراكب كشأن والدهما .ثم انتقلت الاسرة للإقامة بمدينة الخرطوم لوقت وجيز حيث توفيت والدتهم زينب بنت نصر ودفنت في الضريح القائم اليوم بالقرب من مستشفى الشعب التعليمي.

أبان محمد احمد عن شغف مبكر ونبوغ في تلقي العلم والتبحر في علوم الزهد والتصوف وشجعه علي ذلك شقيقاه ويسرا له السبيل فالتحق بخلوة الشيخ الفقيه الهاشمي بكرري وحفظ القرآن الكريم وهو في سن مبكرة. ومن ثم انتقل الي خلوة الشيخ الأمين الصويلحي بمسيد ود عيسي بالجزيرة حيث اصاب قَدرًا من العلوم الشرعية. ودفعه شغفه للمزيد من التحصيل إلى الالتحاق بخلاوي الغبش بمدينة بربر (مدينة) فالتحق بالشيخ محمد الخير عبدالله خوجلي تلميذاً وهو دون العشرين([19]).

تقدم بسرعة في مسالك الطريق. ثم انتقل ليعيش حياة الزهد بقرية الجزيرة أبا بمنطقة النيل الابيض، واسس مسجدًا وخلوة او مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الفقه والعلوم الاسلامية واشتهر بين سكان المنطقة بالاستقامة والورع فتدافع نحوه المريدون ومنهم الشيخ علي ود حلو والذي سيصبح احد خلفائه الثلاثة فيما بعد وشقيقه الاصغر الشيخ موسي ود الحلو. كما توافدت وفود من قبائل منطقة النيل الابيض كقبائل دغيم وكنانة والكواهلة والحسنات والهبانية والحسانية. يقيمون معه يتعلمون من علمه. وجاء اشقائه الثلاثة محمد وحامد وعبدالله للإقامة معه وعملوا علي الاستفادة من خشب غابات المنطقة في تجارة صناعة المراكب التي برعوا فيها([20]). وعلي الرغم من اختلاف الشيخ محمد شريف نور الدائم مع المهدي الا انه لم يكن يشكك ابدًا في ورعه وزهده واستقامته وقد عاش محمد شريف نور الدائم طويلًا بعد انتهاء الدولة المهدية وشهد عودة الاحتلال الانجليزي للسودان فلم يغب تلميذه عن ذاكرته. وبعد خلافه مع شيخه التحق بالشيخ القرشي ود الزين بمنطقة الحلاويين في الجزيرة وهو منافس للشيخ محمد شريف في الطريقة السمانية وكان يتفوق عليه بأنه اخذ الطريقة السمانية مباشرة من الشيخ احمد الطيب البشير. رحب الشيخ القرشي بتلميذه الجديد ورد علي مطالبة الشيخ محمد شريف له بطرده من الطريقة بالعبارة التالية : « انني رأيت الشيخ محمد احمد مستحقا ومنع المستحق ظلم»([21]).

في أثناء عمله ببناء قبة على قبر شيخه التقى الخليفة عبد الله بعبدالله التعايشي ونشأت بينهما صداقة وثيقة وفيما بعد سيكون خليفته في الدعوة المهدية.. كما جمعته ديار الحلاويين بالشيخ عبدالرحمن القرشي ود الزين والشيخ محمد الطيب البصير والشريف احمد الكوقلي والشيخ عبد القادر امام ود حبوبة، وقيل فيها التقي ايضا بعبدالرحمن النجومي ومحمد عثمان ابوقرجة وعدد اخر مقدر من الرجال الذين سيصبحون القوام المبكر للثورة المهدية([22]). وصفه أورفالدر: من خلال الزهد والتعلم المستمر اكتسب مقدرة على الخطابة حببته إلى الناس وقد كان يتحدث بطريقة لطيفة للغاية وله ابتسامة هادئة. رغم انه قد يكون قاسيًا أحيانًا. وقد اعتكف في كهفه في الجزيرة أبا لمدة طويلة اصبح فيها محطة للمسافرين يزورونه ابتغاء البركة. و يمنحونه بعض الهدايا([23]).

## الجذور الفكرية والعقائدية للمهدية:

تبدأ مأساة السودان مع الإنجليز كما أسلفنا، عندما وصل إسماعيل إلى حكم مصر، فعهد إلى ضابط انجليزي يدعى صموئيل بيكر لتنفيذ أغراضه، ونسي أن بيكر لا يمكن أن يكون فيه خير لمصلحة الإسلام. ولما لم يؤدِ بيكر المهمة المكلف بها من قبل إسماعيل وإنما أدى المهمة الملقاة على عاتقه من قبل انجلترا، اختار إسماعيل ضابطًا آخر كما أسلفنا هو غوردون، فعمد غوردون إلى بث الفوضى وإثارة الاضطرابات، والإساءة إلى زعماء القبائل في المنطقة، والتفرقة بين المصريين والسودانيين[24].

لما عرض على المهدي الجنرال غوردون إمارة كردفان وفتح طرق الحج وحقن دماء المسلمين، فأجابه: «أما فتح طريق الحج، فإنها خديعة منك وتظاهر بحماية الدين الإسلامي مع أنك لا تؤمن بحرف مما جاء في هذا الدين، وإنك لمن معشر عرفوا بعدائه وكرهه. فإن كنت ممن يشفق على المسلمين، فأولى بك أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها، وتحملها مع أتباع الدين الحق»[25]. ولما جاء إلى الخرطوم ضابط مصري، أخبر أن رسل الكاثوليك في تلك المدينة تحت كنف محمد أحمد المهدي على حرية تامة، تجري عليهم الأرزاق من طرفه للواحد منهم في كل شهر خمس ريالات ونصف، وأن كنيستهم مفتحة الأبواب[26].

لم يلق المهدي تأييدًا من مشايخ الطرق الصوفية عندما كانت دعوة المهدية في مراحلها السرية، وإحجام المشايخ عن المهدية في أطوارها الأولى جعل المهدي يبتعد منهم روحيًا فعمل مسجده وغارًا للتعبد 1879م في جزيرة أبا وأصبح له أتباع كثيرون ([27]).

عندما انتصر كتشينر في معركة أم درمان عام 1898م، وقام في وحشية بربرية لا مثيل لها بإخراج رفات المهدي الذي دفن في قبر عميق في ذات الغرفة التي مات فيها لكي ينتقم ويتشفى في عدوه[28]، بعد أن انتصر على خليفة المهدي عبد الله التعايش[29]، وكان من أكبر مستشاري الإمام المهدي المقربين، وظل بعد وفاته وفياً للخليفة التعايش. ولما حلت الهزيمة بجيش المهدي وقتل الكثير من أتباعه، قام الشيخ عبد القادر بالثورة، وحرك أبناء الأمة، وقاتل الانجليز بضراوة حتى قبض عليه[30]

## تحرير العقل الديني:

لا خلاف حول ان الدعوة المهدية في السودان قد انطوت على محتوى سياسي طاغي، عبرت عنه ايديولوجيا ثورية تحريرية كان هدفها الرئيسي هو تحرير الأرض من المحتل الأجنبي وتحقيق الإستقلال السياسي الوطني. وهنا يكمن أيضًا أحد الأبعاد التجديدية او على الأقل غير التقليدية في المهدية، بمعايير القرن التاسع عشر. وذلك لسبب رئيسي، وهو أن الأتراك الطرف الاخر في الحرب الذي اعلن المهدي «الجهاد» ضده لم يكن فقط طرفًا مسلمًا وإنما كان يمثل شرعية دولة الخلافة الإسلامية في تركيا، التي يوجب الفقه السني التقليدي طاعتها ويجرم الخروج عليها مهما كانت الأسباب. ومن هذه الزاوية يمكن النظر لرؤية المهدي السياسية بإعتبارها سابقة للإرهاصات الأولى لبزوغ الوعي القومي لعرب الشام الذي عبرت عنه الحركات والجمعيات القومية السرية في بلاد الشام الخاضعة حينها للسيطرة التركية.

هاجم المهدي «علماء» الدين الرسميين هجومًا عنيفًا، وبهجومه هذا وضع إصبعه على بيت الداء. ولن نستغرب أن ترسل القاهرة العثمانية غردون باشا للخرطوم لإطفاء ذلك اللهيب الإسلامي وإرجاع المسلمين في السودان سيرتهم الأولى وهي الخنوع للأجنبي. ويعتبر دراسة خطابات المهدي مع غردون باشا

قمة في الدرس التكتيكي والاستراتيجي في كيفية معاملة العدو، رغم أن غردون أتي بتمثيلية إخلاء المصريين والبريطانيين من السودان تكتيكيًا، وتسليم الحكم للسودانيين، ولكن هذه الحيل لم تفت على المهدي ووزرائه المؤمنين بثوابتهم.

رغم أن إعلان محمد أحمد المهدي قد يباعد بينه وبين ما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إلا أن المتتبع لسيرته سواء منذ بداية دعوته وبعد إعلان المهدية ومن خلال تراثه الفكري بعد المهدية المتمثل في منشوراته ومجالسه وخطبه بالإضافة إلى حكومته الإسلامية التي أقامها في السودان، وسياسته الخارجية التي حملت التوجيه الإسلامي الخالص، يلاحظ مدى عمق العلاقة بين المهدية في السودان ودعوة محمد بن عبد الوهاب السلفية([31]).

تأسى محمد أحمد المهدي بمحمد بن عبد الوهاب منذ بداية دعوته فقد ظل فترة من الزمن يدعو سلمًا بالمواعظ والكتب والرسائل والوفود، للعودة إلى منابع الدين الأولى وترك البدع ومظاهر الشرك، وإحياء سنن الشريعة، والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، ومحاربة الفساد.. وهذا يتفق مع ما جاء في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية منذ بدايتها أيضاً وحملات رسائله بالدعوة إلى بعض بلدان وإمارات نجد([32]).

ثم نلاحظ أسلوبه الجهادي وعقيدته السلفية ومنهجه السلفي في الإصلاح في معظم مناشيره التي تغطي الفترة منذ إعلانه المهدية في "أبا" حتى فتح "الخرطوم" ونهاية الحكم القائم وعموم دعوته، مثل محمد بن عبد الوهاب لتبليغ الدعوة وإزالة مظاهر الشرك والبدع وإقامة مجتمع إسلامي في حكمه، وظهرت عقيدته السلفية بوضوح في تلك المناشير وأيضًا منهجه السلفي للإصلاح ونلاحظ الاتفاق في المضمون فيما دعا إليه الاثنين من العودة بالإسلام إلى عصوره الزاهرة وترك البدع والمنكرات وإن اختلفا في الأسلوب لأن كل واحد منهما كان يخاطب قومه باللغة التي يفهمونها وكان هم كل منهما منصرفًا إلى المعاني لا إلى العبارات([33]).

جاء اتخاذ موقف وقرار فكري بالغاء جميع المذاهب الإسلامية بإعتبارها إجتهاد بشري غير ملزم للمسلمين ليمثل حدثًا على درجة من الخطورة بحيث لا يقوى الكثيرون(حتى في عصرنا الراهن) على مجرد التفكير فيه. ولا شك ان المهدى كان مدركًا كامل الإدراك لمدى خطورة قراره. ويمكن ان نرى بعض علامات هذا المشروع التجديدي المبكرة في بعض منشوراته وبشكل أكثر وضوحًا في بعض قرارته السياسية الجريئة وغير التقليدية. يمكن المحاججة بأن هذه «الثورة الفقهية» التي إبتدرها المهدي بقرار العودة للنص الديني الأصلي لايمكن ان تعني شيئًا اخر غير مشروع إصلاح ديني(غض النظر عن حدوده ومداه)، يهدف الى تحرير العقل المسلم من إستعمار الشروح وشروح الشروح السلفية، مثلما نجح الشق السياسي من ثورته في تحرير التراب السوداني من الإستعمار الأجنبي. وأي مشروع إصلاح ديني يستلزم بالضرورة الإبتداء بتجاوز التفسيرات التقليدية القديمة للنص الديني الأصل، كمقدمة تمهدية ضرورية لتدشين عملية إعادة قراءة وتفسير جديدين للنص على ضوء المعارف والحقائق الواقعية الجديدة التي تشكل عصر المصلح ومصادر وعيه. وجد المهدي نفسه حرًا في تبني(وكذلك إستبعاد) أي أراء فقهية او معتقدات تنتمي لمذهب معين وفي ان يعمل على غرسها في فضاء ينتمي تاريخيًا لمذهب آخر مختلف. وهذا يقودنا لنقطة هامة جدًا تتعلق بجوهر المشروع المهدوي، فالذي لا خلاف عليه ان فكرة المهدي المنتظر نفسها تنتمى في الأساس للفقه والتراث الشيعين. ولكن المهدي نجح نجاحًا لا نظير له في أن يغرسها وأن يستقطب لها آلاف «الأنصار»([34]). والشرط المطلوب توفره

في المصلح المجدد، بالإضافة طبعًا للمؤهلات المعرفية المعيارية المطلوبة في كل منخرط او متخصص في موضوعه، هو الشجاعة الفكرية التي يولدها الإفتتاح العقلي وعبقرية الروح الثورية المتمردة التي تنفر بطبيعة تكوينها من قيود التقليد والعادة وتنزع للتحرر وللتجديد والتجاوز. هذه الدرجة العالية من الإنفتاح العقلي وإتساع الرؤية والتحرر من قيود الإنتماءات الأولية وتجاوزها يصعب ان نجد لها نظيرًا في مثل ظروف زمان المهدي وبيئته التقليدية التي نشأ وتربى وتتلمذ فيها. بل انها تتفوق لحدود كبيرة على تكوين وعقلية العديد من القيادات والتي شهدت الأمة في عهدها عودة العصبيات الدينية والطائفية والعرقية والجهوية بقوة طاغية، بشكل مزق ويمزق النسيج الإجتماعي الذي كان المهدي أحد الرموز التاريخيين الذين صاغوا لحمته وسداه.

كثير من الكتابات تحاول تركيب وتقديم تأويل أصولي للمهدية لتقديمها كأحد جذور المشروع الأصولي السلفي. وهم يعتمدون في ذلك على الممارسة السياسية والتشريعية والقضائية في دولة المهدية. التي تميزت بالحروب الجهادية والنزاعات الأهلية والسياسة الحصرية القابضة وتطبيق بعض أحكام الحدود. يجب الإعتراف هنا بأن هذا الجانب يشكل أيضًا موضوعًا جداليًا تتنازعه وجهات نظر متعددة ومتضاربة. مع ذلك يجب التمييز بين الثورة الفكرية(الفقهية) التي ناقشناها من جهة والثورة السياسية للمهدية ثم دولة المهدية من جهة أخري. وأن رؤية المهدي الإصلاحية التجديدية التي اشرت اليها هي أقرب لمرحلة الثورة المهدية التي قادها المهدي منها لمرحلة الدولة المهدية التي غاب عنها.

إن شخصية المهدي القوية، والمعتقد الديني الذي يدعو إليه، والسخط العام الذي كان سائدًا ضد الولاة الذين كانوا يفرضون الضرائب الباهظة على الناس، وتفشي الرشوة والمظالم، وسيطرة الأتراك والإنجليز، كان ذلك كله دور مهم في تجمع الناس حول هذه الدعوة بهدف التخلص من الوضع المزري الذي هم فيه إذ وجدوا في المهدي المنفذَ والمخلِّصَ.

لقد دعا المهدي إلى ضرورة العودةِ مباشرة إلى الكتاب والسُّنة دون غيرهما من الكتب التي يرى أنها تبعد بخلافاتها وشرورها عن فهم المسلم البسيط العادي. وأوقف العمل بالمذاهب الفقهية المختلفة، وحرم الاشتغال بعلم الكلام، وفتح باب الاجتهاد في الدين، وأقر كذلك كتاب كشف الغمة للشعراني، والسيرة الحلبية، وتفسير روح البيان للبيضاوي، وتفسير الجلالين!! وألغى جميع الطرق الصوفية وأبطل جميع الأوراد داعيًا الجميع إلى نبذ الخلافات والالتفاف حول طريقته المهدية مؤلفًا لهم وردًا يقرءونه يوميًا، ومن هذا الباب دخلت مرة أخرى في بوتقة الصوفية وانصهرت فيها.

كان يلح على ضرورة التواضع وعدم البطر وتشديد النكير على الانغماس في الملاذ والبذخ والنعمة، ويعمل على التقريب بين طبقات المجتمع. ومنع البكاء على الأموات، وحرَّم الاشتغال بالرُّقى والتمائم، وحارب شرب الدخان وزراعته والاتجار به، وشدد في تحريمه. وأقام حدود الشريعة في أتباعه كالقصاص وحيازة خمس الغنائم ومصادرته أموال السارقين والخمارين، وصك العملة باسمه ابتداء من فبراير 1885م جمادى الأولى 1302هـ. أقام في المنطقة التي امتد إليها نفوذه نظاماً إسلاميًا، ونظم الشؤون المالية وعين الجباة لجمع الزكاة، وكانت مالية الدولة التي أقامها مكونة مما يجبى من زكاة وجبايات.

## مفهوم المهدي للخلافة :

ظهر أن المهدية أول نظام إسلامي استعمل هذا اللفظ علي مراكز متميزة ومختلفة، لأن هذا اللقب من قبل كان خاصًا برأس الدولة فقط ولدلالات مفهوم الخلافة الكثيرة، ونعالج هذا الجانب ونحاول أن نزيل غموضًا، لأنه يُنظر إلي هذا الموضوع من منظور الواقع الاجتماعي والواقع السياسي. والانتقال إلي وظيفة نائب المهدي وفكرتها وبداية تطبيقها وتطورها، واقتصار لفظ الخليفة على قادة الرايات دون غيرهم، واستعمال لفظ الأمير بدل الخليفة كالقاب لهؤلاء. وما وضعته المهدية من تعريفًا جديدًا للقب الأمير وظهور وظائف دينية وإدارية مثل قاضي الاسلام وأمين بيت المال بصلاحيات واسعة.

بداية فقد وضع الإسلام نظامًا غير مسبوق للخلافة، جعله دستورًا للمسلمين للعمل علي ضوئه وكان بذلك أعظم تشريع بالقياس إلي ما كانت عليه الأمبراطوريتان الرومانية والفارسية، واستمر هذا النظام في عهد الخلافة الراشدة الذي ارتكز علي الشوري، والتقيد بما كان سائدًا في عهد النبوة([35]). وتبعًا لأسباب كثيرة تحول هذا النظام الشوري إلي ملك عضوض في عهد بني أمية وما تلاه من عصور، وما حدث عقب سيدنا معاوية، لهو بحث عن مسُوغ شرعي لهذا التغيير، ولعله أول دعاء سياسي تبريراً لما سيسير عليه في سياسته نحو الرعية. وجاء العباسيون وادعي الخليفة ابو جعفر المنصور أنه مفوض من الله، وهو خليفته في الأرض وأنه يستمد أي تشريع أو قرار يصدره من الله، وكان هذا دعمًا لسياسة الغاية تبرر الوسيلة، وفهم الناس من هذا الشعار عدم شرعية المعارضة لسياسته فاستكانوا علي مضض حماية كرامتهم. ومروراً بادعاء الفاطميين وابن تومرت إلي عصرنا الحاضر في ظلال هذه الدعوة ملازمًا للدول الإسلامية، وكانت السلفية تعلن شعار العودة إلي مجتمع الرسول(صلي الله عليه وسلم) مع اختلاف واتفاق في اسلوب الدعوة، وشهد العالم الاسلامي حركات التجديد والإصلاح في الحجاز واليمن ومصر وغرب أفريقيا والسودان الذي شهد ميلاد دعوة ومواءمة بين النظرية والتطبيق.

كان لكبار الأعوان والمساعدين للمهدي في أمور الدولة والدعوة معًا، وظهر مركز يليه شمل صغار المساعدين من قادرة عسكريين كاداريين للأقاليم وقد تطور هذا المركز إلي إمارة وجاء المركز الرابع خاصًا بخليفة خليفة المهدي الذي تولاه الخليفة عبد الله بعد المهدي.

بهذا تعتبر المهدية أول نظام إسلامي استعمل هذا اللفظ علي مراكز متميزة ومختلفة، لأن هذا اللقب من قبل كان خاصًا برأس الدولة فقط ولدلالات مفهوم الخلافة الكثيرة، أن بحيث يقتصر علي بيان علاقة المركز الثاني خلافة الخلفاء الكبار – بالمركز الرابع مركز الخليفة نفسه، وقد عالج المؤلف هذا الجانب وأزال عموضاً ونظر إلي هذا الموضوع من منظور الواقع الاجتماعي والواقع السياسي. وبالانتقال إلي وظيفة نائب المهدي وفكرتها وبداية تطبيقها وتطورها، واقتصر لفظ الخليفة على قادة الرايات دون غيرهم، واستعمل لفظ الأمير بدل الخليفة كالقاب لهؤلاء. ووضعت المهدية تعريفاً جديداً للقب الأمير وظهرت وظائف دينية وإدارية مثل قاضي الاسلام وأمين بيت المال بصلاحيات واسعة.

الواقع أن نظام الخلافة عند المهدي لم يكن اقتباسًا مما وضعه النبي(صلي الله عليه وسلم) وإنما كان تطبيقًا لقاعدة ظهرت فيما بعد، وبذلك فإن أسس ترتيب خلفاء المهدي لم يتقيد بنظم ذلك العهد، وتعيين اشخاص معينين عند المهدي يخالف ما كان عليه في العصرين الأموي والعباسي، ففيهما كان ترتيب أولياء العهد غير مقيد وغير ثابت علي خلاف الأمر عند المهدي.

بتشريح نظام الخلافة وولاية العهد في كل الجوانب في مقارنة جيدة وقراءة متأنية بين العهدين النبوي والخلفاء الراشدين وبين عهد المهدي ولتداخل المصطلحات والتشابه والتعارض أنتهي الي أن فكرة الولاية لم تضمن في الخلافة ثم يناقش لقب خليفة المهدي الذي نأخذه علي علاته دون تفكير في بداية استعماله الذي لم يعرف في حياة المهدي، وإنما استعمله الأنصار بعد وفاته، بدلاً من الخليفة أو خليفة أو أمير جيش المهدي.. الخ. ويجب وضع مفهوم المصطلح عند المهدي – وهو القول الفصل، فالمهدي يميز(بين الخلافة بمعناها الوظيفي فهو يصفه بالخليفة أو خليفة الصديق عندما يقصد مرتبته في المهدي ومكانته الاجتماعية وسماته الشخصية، بينما يصفه بالنائب عنه أو الوزير عندما يقصد وظيفته في الدول. ولقد لفتت رسائل المهدي انباه الكثيرين، فهي من العمق والثقافة الدينية واللغوية والتاريخية متقدمة بشكل مدهش عما نقرأه في هذه الأيام من الحركيين الإسلاميين وقياداتها. ما يكتبه الإسلاميون اليوم، خاصة السلفيون ومشتقاتهم فهو تقليدي. عمومًا، تقييم رسائل المهدي نقطة مهمة جدًا لكي تفهم شخصية المهدي أو تحللها، خاصة أن الإمام المهدي الذي بشرنا به الرسول(صلى الله علية وسلم) ليس هو الإمام محمد أحمد المهدي. فكيف يمكننا فك الاشتباك أو هذه المشكلة أو حل هذا التناقض؟([36]).

الإمام محمد أحمد عبد الله «المهدي» كان يعرف أنه ليس المهدي المنتظر الذي ذكرته كتب الحديث والسير لدى السنة والشيعة الامامية، فذلك المهدي الذي ذكره رسولنا الكريم(صلى الله عليه وسلم) لم يخطر في عقله قط. أقصى ما عزم عليه الامام السوداني أنه استخار ربه في استخدام كلمة «مهدي» في مدلولها اللفظي. وحقيقة، يمكن إطلاق لفظة «مهدي» على كل من هداه الله، خاصة إذا كان جديرًا بها، فحتى كتب الحديث تشير إلى ذلك: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»، وهو حديث طويل([37]). وكذلك لم يستطع الأنصار لاحقًا تجاوز نقطة الحرج أن محمد أحمد المهدي ليس هو المهدي الحقيقي، رغم أنه من السهولة تفسير الأساس الشرعي والديني الذي أنطلق منه المهدي، فلم يكذب، ولم يخرج عن الشرع السني قيد أنملة، فهو لا تنقصه الهداية بنص قول الرسول(صلى الله عليه وسلم) عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين([38]) .والحق أن أمر خلافة المهدي، وموقع الخليفة شئ يكتنفه بعض الغموض والنصوص تتعارض أحيانًا، ولكن ما نراه مدخلاً أو مخرجًا عندما نتأكد أن الخليفة عبد الله لم يتول الخلافة بعد المهدي مباشرة وإنما وصلها بعد نزاع طويل وهنا نتساءل لنقرب المعنى عن سبب نزاع الأشراف والمطالبة بخلافة العهد اذا كان المهدي ينص علي أن يلي الخليفة عبد الله بعده، ولكن للأنصار رأي آخر يسوقون تبريرًا له ما جاء في حضرة نبوية تعين الخليفة عبد الله بالاسم لتوليه هذا المنصب وهم لم يقدموا مستندًا آخر غير هذه الرؤيا. لعل وفاة المهدي دون تعيين خليفة كان سبب الخلاف مما يؤكد أنه ليس هناك نص من المهدي بخلافة الخليفة عبد الله. مما أعطي مجالاً للمطالبين بالخلافة.

## نهاية المهدي وأهم ما قيل عنه:

خاطب الامام المهدي احمد ود سليمان بالإسراع في تجهيز الجيش المتجه لتحرير سنار وذكر عدم تمكنه من الحضور لتوديع الجيش بنفسه لمرضه.. ولعلها اولي الوثائق التي يتحدث فيها المهدي عن مرضه([39]). وعلي الرغم من اشتداد المرض علي المهدي الا ان ابراهيم فوزي باشا الضابط والاداري المصري الذي وقع في اسر الثوار بعد تحرير الخرطوم يذكر ما يفهم منه انه صلي خلف المهدي صلاة ليلة النصف من شعبان حين

يقول: «وصلي المهدي بالناس في ليلة النصف من شعبان مائة ركعة بالقرآن كله رافعًا صوته بالقراءة باكيًا([40]). وفي اليوم الأخير من شعبان 1302ه عاد المهدي عودته الاخيرة الي مدينة ام درمان من الخرطوم التي زارها لتفقد احوالها فازعجه ميل بعض الانصار عن التقشف والزهد وإيثارهم لحب الدنيا وسكنهم في قصور أعيان الخرطوم وباشواتها من المستعمرين.. فخطب خطبة الجمعة الاخيرة في مسجدها وقرع ذلك المسلك تقريعًا عنيفًا.. وتلي قوله تعالي (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ)([41]). وستكون تلك اخر صلاة له بمسجد مدينة الخرطوم قبل وفاته([42]).

عند ثبوت هلال رمضان 1302ه وبعد صلاة المغرب طلب الامام المهدي من الناس العفو وذاكرهم في فناء الدنيا وخير الآخرة([43]). ويتوافق ما تقدم ذكره تمامًا مع مضمون اخر منشور للمهدي والذي صدر في (اخر شعبان 1302ه) الموافق بالتقريب(14 يونيو 1885م)([44]).

في ثاني ايام رمضان اشتدت الحمي علي الامام المهدي الي ان انتقل الي رحمة مولاه في ثامن ايام رمضان 1302ه الموافق 22 يونيو 1885م فدفن في ذات الحجرة التي توفي فيها.. وهي ذات المكان الذي يوجد فيه ضريحه الحالي ولم يتخطى عمره آنذاك الثانية والاربعين بعد.

لقد شكلت وفاة المهدي حدثًا بارزًا علي خارطة الاحداث العالمية آنذاك فكتبت صحيفة «Shefield Daily Telegraph» البريطانية بعد وفاة المهدي تحقيقًا صحفيًا تحت عنوان «How the Mahdi died» او «كيف توفي المهدي».. وخلصت الي انه توفي بالحمي «رجحت انها حمي مرتبطة بمرض الجدري» والتي اشتدت عليه منذ 19 يونيو حتي توفي في 22 يونيو 1885.. كما ذكرت ان اخر وصايا المهدي كانت مواصلة حرب التحرير ضد الغزاة واشارت الي ان الخليفة عبدالله قد خلفه في إدارة الدولة.. وفي نهاية التحقيق اشارت الصحيفة الي ان خبر وفاة المهدي قد تناولته عدد من ابرز صحف العاصمة النمساوية «فيينا» ونقلت بدورها تهانيها الحارة عن خبر موت المهدي للحكومة البريطانية([45]).

اما صحيفة «Hartlepool Mail» البريطانية والتي تصدر من مدينة درم بأقصى شمال إنجلترا فقد نشرت تحقيقًا بعنوان «Russia and the Mahdi s death» او «روسيا ووفاة المهدي».. اشارت فيه الي اهتمام الصحف الروسية بخبر وفاة المهدي وذكرت تحديدا صحيفة Novo Vermya الروسية الشهيرة واهتمامها بنشر هذا النبأ. كما اشارت لقلق روسيا من النتائج المترتبة علي ذلك لأنها ستعطي بريطانيا شعورا بالراحة من خطر الثورة المهدية علي مستعمراتها مما سيطلق يدها في منطقة اسيا الوسطي وهو ما تخشاه روسيا([46]).

اما صحيفة «Western Daily Press» الانجليزية الواسعة الانتشار فقد ذهبت الي آفاق ابعد من غيرها حينما أوفدت مراسلًا صحفيًا الي مدينة سواكن لتغطية اثار وفاة المهدي علي السودانيين هناك ونوهت في تغطيتها انه من الصعب تماماً تحديد اثر وفاة المهدي علي الناس وذكرت ان مشايخ القبائل والامراء قد عمهم الحزن والكرب لموت قائدهم ولكن ذلك لم يفت من عضدهم بل يبدو انه زادهم تصميما ، فهم يصلون صباحا ومساءا للموت او الجنة «praying night and day for death and heaven» .. كما وصفت الصحيفة الامير عثمان دقنة بالقائد الرائع «Wonderful man» الذي استطاع تثبيت قلوب المئات من اتباعه وعلي الرغم من ان اتباعه لا يفوقون المئات الا انه قادر تماماً علي محاصرة 10 الآلاف من القوات

البريطانية في أماكنهم([47]). وفي الذكري الخامسة عشر لوفاة المهدي كتبت صحيفة «York Herald» البريطانية تحت عنوان «The Sudanese Views of the Mahdi».. خلصت الصحيفة الي انه كان رجلًا عظيمًا «He was a great man».. كما اشارت الي انه لم يُهزم في معركة قط طوال حياته «He never saw a defeat» ويذكر صاحب المقال البريطاني ان هذه الحقيقة قد جابهه بها احد الذين استطلعهم من السودانيين وقد أوقعته صحة المعلومة التي كان يعرفها سلفًا في حرج بالغ اضطر معه الي تغيير الموضوع مع الشخص المستطلع رأيه This was so true that I changed the subject([48]). وعلي مستوي المؤرخين البريطانيين فقد كتب ونستون تشرشيل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق.. في معرض تقييمه لأحداث الثورة المهدية والتي عاصر أحداثها كمراسل حربي ومؤرخ.. كتب معلقًا علي إنجازات المهدي قبل وفاته: «مهما قيل عن المهدي، فيجب ان لا ننسي انه القائد الذي بث روح الحياة والامل في قلوب بني وطنه. لقد كان هو الزعيم الذي حرر بلاده من الحكم الأجنبي وحول شعبه من حياة بائسة بلا أمل الي حياة مفعمة ومليئة بالروعة. لقد أشعلت روح المهدي بين صدور السودانيين المتواضعة شعلة الوطنية والانتماء للدين. وصارت الحياة مليئة بالمخاطر المبهجة والمثيرة فعاش السودانيون في عالم جديد رائع ألهب خيالهم.. فهم ان عاشوا في هذه الدنيا، فسيقومون بجلائل الاعمال.. وان لقوا حتفهم في اثناء اشتباكهم مع مربعات الجيش البريطاني او القوات المصرية، فمصيرهم جنة السماوات عندها».. ثم يستطرد في حديثه الي ان يقول» ولذلك فإنني اعتقد انه في سنوات المستقبل القريب ان هبت رياح التقدم والازدهار وأعقبها قطار الوعي والتعليم في ذات المسار لشعب وادي النيل, فعندها لن ينسي اول مؤرخ عربي يود ان يوثق لتاريخ تلك الامة.. لن ينسي.. ان يكتب اسم محمد احمد المهدي في مقدمة ابطال شعبه»([49]). وفي ذات السياق علق استاذ التاريخ البريطاني البروفيسور ثيوبولد A.B.Theobold علي وفاة المهدي وانجازاته في حياته القصيرة.. من خلال سفره القيم «The Mahdiya» حينما كتب قائلا: «كانت شهرة محمد احمد المهدي كفيلة بان تحفظ اسمه للأجيال القادمة من بني وطنه.. في خلال اربع سنوات.. صنع مجده من العدم.. وانتصر انتصاراً كبيرا علي قوتين دوليتين تفوقانه عدة وعتادا (بريطانيا وتركيا).. قام بوضع أسس الدولة الوطنية الجديدة.. كما قام بدعوة إصلاحية استهدفت إصلاح ما فسد من دين شعبه.. وحّد السودانيين.. وغير طريقة وأسلوب حياتهم للأفضل.. ومنحهم ثقة وإيمانًا اكبر بمقدراتهم وبأنفسهم.. وقادهم نحو الحرية والانعتاق.. ومع كل هذا.. اكتسب طاعة شعبه الكاملة واحترامهم وتقديرهم اللامحدود.. هنالك عدد محدود من الرجال علي مر التاريخ الإنساني ممن يستطيعون ان يفعلوا مثلما فعل المهدي في السودان»([50]).

اما فيما يختص باستمرار كاريزما القائد بعد وفاته فقد تعرض لهذا الامر بالتفصيل البروفيسور الامريكي ريتشارد ديكميجيان استاذ العلوم السياسية بجامعة جنوب كاليفورنيا من خلال بحثه الأكاديمي بعنوان «كاريزما القيادة في الاسلام، مهدي السودان».. حيث قام بإجراء دراسة أكاديمية اشتملت علي 140 من القادة والامراء الذين ساندوا المهدي.. مستندًا علي مصادر تاريخية متعددة ومتنوعة.. فخلص الي انه علي الرغم من وفاة المهدي المبكرة الا ان 126 منهم.. اي ما يعادل (90٪)، منهم قد واصلوا علي ولائهم واخلاصهم لمبادئه حتي النهاية.. بينما تراجع عن مبادئ الثورة(10٪)، فقط من قادتها ووفقًا لدراسته فقد استسلم معظم هؤلاء او تراجعوا عن المقاومة حينما صارت الهزيمة وشيكة.. ويقرر ديكميجيان ان تلك النسبة تعبر

بوضوح عن استمرار كاريزما القائد في تحريك الجماهير حتي بعد وفاته.. بل ويذكر ان المهدي لو عاش قليلا لشكل تهديدًا حقيقيًا علي سيطرة بريطانيا علي مصر ومستعمراتها في افريقيا.. ويعبر دكيمجيان عن اعجابه بكاريزما القائد حين يقول: «لقد كانت مقدرة المهدي علي مخاطبة وتحريك الجماهير افضل مثال للبساطة والوضوح المطلوب.. في مجتمع معقد ومتعدد الأعراق والثقافات كما هو حال السودان في القرن التاسع عشر.. كانت الثورة المهدية تمثل نقطة التقاء لمطامح وامال عريضة لقوي قبلية واجتماعية وسياسية مختلفة قاومت الاحتلال الأجنبي. لقد كان لكاريزما القيادة عند المهدي الدور الأكبر في تجاوز تقاطعات تلك القوي واسترضاء اشتاتها المختلفة وتحقيق التجانس والانصهار بينها ثم الوحدة الوطنية ومن ثم الانتصار للثورة»([51]).

صفوة القول ان الامام المهدي قد عاش حياة قصيرة بحساب الزمن والارقام.. كما لم تتعدي فترته في القيادة الأربع سنوات الا انها كانت حياة حافلة بالعديد من الوقائع والاحداث التي أسهمت بقدر كبير في تشكيل ملامح السودان الحديث.. ولم يخلف ورائه إرثا هائلًا من الادبيات المكتوبة في الذاكرة الوطنية والغربية وحسب بل خلف ورائه دولة وطنية متكاملة الأركان.. كانت الدولة الوحيدة المستقلة في افريقيا القرن التاسع عشر.. وبقيت تقاوم الاستعمار البريطاني بشراسة حتي نقطة النهاية.

## الخاتمة:

لقد استطاعت الثورة المهدية أن تصهر السودانيين في بوتقة واحدة، وجعلت منهم شعبًا واحدًا جاهد مع قائده وزعيمه الروحي وحقق انتصارات باهرة على أعدائه، وقد أسقطت المهدية المذهبية وألغت الطرق الصوفية، وقد اعتبرت الجهاد ضد الكفار مقدم على الفرائض الأخرى. وما يزال للمهدية أنصار كثيرون يجمعهم حزب الأمة الذي يسهم في الأحداث السياسية الحالية في السودان. كما أن لهم تجمعاً وأنصاراً في أمريكا وبريطانيا يعملون على نشر أفكارهم ومعتقداتهم بين أبناء الجاليات الإسلامية بعامة والسودانيين بخاصة.

أن مشروع الإصلاح او الثورة الفقهية الذي كان يحمله المهدي هو مشروع لم يتبلور بالكامل لرحيله السريع والمفاجيء. وكل المتحقق منه هو إعلانه إلغاء المذاهب زائدًا بعض القرارات والمواقف والتي تدل بوضوح على انها كانت تصدر عن خلفية ومنهج تفكير منفتحين ومتحررين مقارنه بالعقلية الفقهية التقليدية-القبلية السائدة حينها. والمؤكد أن المهدي لو عاش حتى ولو لسنوات قليله بعد فتح الخرطوم، لكانت الصورة أكثر وضوحًا في هذا الجانب ولربما ورث السودانيون عن الإمام المهدي ليس فقط تاريخ أول دولة مستقلة في أفريقيا في القرن التاسع عشر، ولكن أيضًا البذور الجنينية لمشروع إصلاح ديني سوداني مبكر. ويجب ان نضع في الإعتبار أيضًا السياق التاريخي وإستحالة ان يتمكن المهدي او أي مصلح اخر في زمانه وظروفه من تقديم تفسير جديد للنص الديني يتجاوز بالكامل كل عناصر الأحكام السلطانية والحدود الشرعية في الفقه الإسلامي التقليدي([52]).

## النتائج والتوصيات:

- أن موضوع الإصلاح والتجديد والاجتهاد، ظل محل إهتمام منذ عصر الخلافة الراشدة وإلى يومنا هذا، فالقضايا التي استجدت في حياة الناس أوجبت البحث عن حلول تستنبط من المصادر الشرعية للتعامل بها، صحيح أن الموضوع يتقدم حينًا ويتراجع أحيانًا، ولكنه لم يغب عن بال أهل الشأن من

العلماء الذين يرجع إليهم عامة المسلمين، لمعرفة حكم الشرع في القضايا التي تواجههم، «على الرغم من شيوع فكرة إغلاق باب الاجتهاد في أواخر القرن الرابع الهجري ومابعده إلى عصرنا الحاضر، بين أهل السنة، من الناحية النظرية»([53]).

- أن دوافع الاجتهاد تتلخص في الحوادث التي تواجه المسلم فيسأل عنها المجتهدين، أو المتعلقة بالكليات الخمس، مع الموازنة بين الطرق الخاصة بالاجتهاد التي تسع المجتهدين لتحقيق الغرض من مشروعية الاجتهاد، وهو إيجاد الحلول الشرعية على ضوء الأدلة من الكتاب والسنة ومقاصد الشريعة الإسلامية([54]).
- أن الاتجاه الذي يدعو إلى الاجتهاد والإصلاح والتجديد صار غالبًا بل ملحًا لدي عدد من العلماء الذين يعتد برأيهم، والضرورة بالغة في حياة الأمة إلى وجود العلماء المجتهدين، الذين جمعوا من علم المعقول والمنقول ما يجلي لهم خفايا الأمور، ويبصرهم بحكم الأحكام وعلل التشريع ومقاصد الشرع حتى ينزلوا كل أمر منزله، ويعطى كل حادث حكمه([55]). إلا انه مع بروز الحديث عن أهمية الاجتهاد وضرورته إلا أن الجهود المبذولة لتجديد أصول الفقه ظلت محدودة، ومع محدوديتها، فإنها تتناول الموضوع على استحياء([56]).
- بلغ المد الإسلامي ذروته في السودان خلال القرن الثامن عشر الميلادي حتى إذا ما أطل القرن التاسع عشر كانت العقيدة الإسلامية قد استقرت في الجزء الأعظم من سودان وادي النيل ضاربة بجذورها في أعماق ذلك المجتمع، وفي الوقت ذاته احتفظت العناصر الأخرى التي لم تنصهر في المجتمع الإسلامي العربي بإرثها من المعتقدان واللغات والتقاليد والأعراف وظلت تؤدي طقوسها وشعائرها الدينية في رحاب السماحة التي أضفاها الإسلام على المجتمع الكبير الذي تفاعلت معه.
- أنَّ الثورة المهدية «ردًا إسلاميًا» على الوصاية الدولية وعلى محمد على وذريته والقوي التي مكنت له في وادي النيل كما كانت اقتلاعًا لحكم «علماني» فرض على أهل السودان بقوة السلاح وإيذانًا بعودة الشريعة الإسلامية، بغض النظر عن فكرة المهدية، بعد غيبة جاوزت الستين عامًا تجاوز خلالها محمد على وأحفاده تعاليم الإسلام في شؤون الحكم والإدارة والقانون والاقتصاد وحصر شمول الإسلام وحيويته في دائرة ضيقة لا تجاوز «الأحوال الشخصية» أي أن محمد علي فصل الدين عن الدولة وأدخل في السودان -لأول مرة- فكرة "الإسلام الرسمي» و«العلماء الموظفون» وثنائية التعليم فابتدعت فكرة التعليم المدني والتعليم الديني المقتبسة من نظم التربية الأوربية([57]).
- أن رصانة أسلوب المهدي وجمال بلاغته وخطابه السهل الممتنع يؤهلانه عن جدارة لاحتلال المكانة الرفيعة التي وضعه فيها بعض المؤرخين. والمقصود هنا أولئك الذين اعتبروه أفضل كتاب العربية في عصره. هذه المعرفة الفقهية الموسوعية والتمكن من علوم وفنون اللغة العربية والبيان، من شخص لم يكن قد جاوز الأربعين حين أشهر دعوته، يدلان على أن الرجل كان يعد نفسه لما هو أكبر بكثير من مجرد أدوار القيادة الدينية والسياسية التقليدين، في مجتمع تقليدي كالمجتمع السوداني في القرن التاسع عشر.

هذه دعوة للدراسة والنظر الفكري والتاريخي في سيرة الإمام محمد أحمد المهدي من زاوية مختلفة قليلا. وهي اقرب للتأمل الذاتي في سيرة الإمام المهدي الدينية، منها للدراسة الملتزمة بالشروط الأكاديمية. وإن كانت دعوة للدراسة العلمية والتاريخية الجادة من قبل المختصين من مؤرخين واختصاصي تاريخ الأفكار والنصوص والإسلاميات، للنظر في المشروع المهدوي السوداني من زاوية مختلفة وجديدة نسبيًا، وهي زاوية المهدي المفكر والمجتهد والمصلح الديني. والمتفحص لغالب الكتابات العديدة حول المهدي والمهدية يجد انها قد ركزت اهتمامها، في الغالب الأعم، على المهدية كثورة سياسية جهادية, وكذلك على المواهب الحربية الاستراتيجية والتكتيكية للمهدي كقائد عسكري استثنائي. واهملت لحدود كبيرة جوانبها الفكرية خاصة التجديدية والإصلاحية. فالإمام المهدي مثلما هو قائد لثورة سياسية هدفت لتحرير التراب الوطني من الاحتلال الأجنبي، يوجد ما يحمل على الاعتقاد انه كانت أيضًا لديه تصورات (ولو أولية) لثورة فقهية تهدف لتحرير العقل الديني من اسر العصبية المذهبية والتقليد([58]).

## الهوامش:

(1) عبد المحمود أبو شامة، من ابا الي تسلهاي، المطبعة العسكرية، ام درمان 1987، ص115.

(2) شوقي إبراهيم عثمان، محمد أحمد المهدي وفك الاشتباك، صحيفة الرواكبة، 2011-1-7.

(3) علي شلش، جمال الدين الافغاني بين دارسيه , دار الشروق , القاهرة 1987, ص 122.

(4) عبـد المحمود أبـّوشامة، المرجع السابق، ص117.

(5) أحمد بن حمد الخليلي, بيان أثر الاجتهاد والتجديد في تنمية المجتمعات الإسلامية، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ص18.

(6) محمد عبدالرحمن المرعشلي، اختلاف الاجتهاد وتغيره وأثر ذلك في الفتيا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003 م بيروت – لبنان، ص9.

(7) عبـد المحمود أبـّو، الندوة الرابعة عشر تطور العلوم الفقهية- فقه العصر مناهج التجديد الديني والفقهي، وزارة الأوقـاف والشئون الدينيـة، سلطنـة عُمـان، ، 5- 8 أبريــل 2015م، مسقـط.

(8) وإنما سميت كذلك من لفظ حديث «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وماسكت عنه فهو عَفْوٌ...» الحديث رواه الحاكم في المستدرك» (2/375)، عن أبي الدرداء وقال الذهبي في «التلخيص» صحيح، والمقصود: المنطقة التي تبرز أدلة التشريع فيما لانص فيه. أنظر، محمد عبدالرحمن المرعشلي، مرجع سابق، ص11.

(9) المرجع السابق ص 11.

(10) أحمد الخليلي المرجع سابق، ص8-7.

(11) أحمد المسلماني، صحيفة الوطن، الثلاثاء 2015-06-16.

(12) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث 1955-1820، الطبعة الثانية، مركز عبد الكريم ميرغني، الخرطوم، 2002، ص. 36.

(13) كمال بكديللي، «الدولة العثمانية من معاهدة قينارجه الصغرى حتى الانهيار»، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، الجزء الأول، اسطانبول، 1994، ص. 102-101.

(14) أحمد المسلماني، مرجع سابق 16- 6- 2105.

(15) أنظر: التاريخ الإسلامي، لشاكر. 8/502 – 513.

(16) أحمد المسلماني، صحيفة الوطن، مرجع سابق.

(17) عصمت زلفو، كرري-تحليل عسكري لمعركة ام درمان, المطبعة العسكرية ام درمان، 1973، ص570-566.

(18) كلمة «سيدنا» تطلق في الأدب الشعبي السوداني علي الشيخ او الفقيه صاحب الخلوة الذي يعلم طلابه القرآن الكريم والعلوم الاسلامية. أنظر، موسى عبد الله حامد، تبصرة وذكري، سياحة في راتب الامام المهدي، الدار السودانية للكتب, الخرطوم، 1997، ص120.

(19) موسى عبد الله حامد، تبصرة وذكري، سياحة في راتب الامام المهدي، الدار السودانية للكتب, الخرطوم 1997, ص23-22. كذلك عبد الودود شلبي، الاصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته، دار المعارف، القاهرة 1979، ص121.

(20) الصادق المهدي، يسألونك عن المهدية، دار القضايا، بيروت، 1975، ص132.
(21) عبد الرحمن إبراهيم الحلو، الخليفة علي ود حلو صاحب الراية الخضراء، شركة مطابع السودان للعملة، الخرطوم 2012، ص175.
(22) عصمت زلفو، الخليفة (السنوات الاولي 1885-1846)، دار كرري للطباعة والنشر، ام درمان 1994، ص187.
(23) جوزف اورفالدر، عشرة سنوات من الاسر في معسكر المهدي، ترجمة عوض أحمد الضو، 2008، ص191.
(24) أنور الجندي، «الاستعمار والعالم الإسلامي»، ص 270. كذلك، الإسلام وحركات التحرر، ص 123.
(25) محمد عمارة، "تيارات الفكر الإسلامي"، ص275. جريدة الأهرام المصرية في عددها بتاريخ 20/10/1967م. والعروة الوثقى، ص 259.
(26) »العروة الوثقى». ص243.
(27) شوقي إبراهيم عثمان، المرجع السابق، ص196.
(28) الإسلام وحركات التحرر. ص133.
(29) »الإسلام وحركات التحرر». ص131 – 133. و»الموسوعة الميسرة». ص 1/311.
(30) صديق محمد أحمد البادي، لمحات من حياة وثورة ومدائح الثائر البطل عبد القادر ود حبوبه، دار الأيام للطباعة والنشر، ص185.
(31) عمر سالم عمر بابكور، الدعوة في السودان وتأثرها بالدعوة السلفية، دراسة تاريخية وثائقية "، جامعة أم القرى - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - قسم التاريخ الإسلامي، 189.
(32) المرجع السابق، 191.
(33) المرجع السابق، 192.
(34) ناصف بشير الأمين، المرجع السابق، 188.
(35) محمد إبراهيم ابو سليم، مفهوم الخلافة وولاية العهد في المهدية، مركز ابو سليم للدراسات، الخرطوم، 1989، عرض، يحي محمد ابراهيم، ص211.
(36) شوقي إبراهيم عثمان، المرجع السابق، 193.
(37) المرجع السابق، ص194.
(38) المرجع السابق، ص195.
(39) أحمد ود سليمان، خطابات المهدي، بتاريخ اوائل شعبان 1885 الموافق مايو 1885، أنظر كذلك ابو سليم، مصدر سابق ص 183.
(40) ابراهيم فوزي، السودان بين يدي غردون وكتشنر، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة، ص 26.
(41) سورة إبراهيم، الآية 45.
(42) أوراق السيد علي المهدي، نسخة بخط يد الشيخ سليمان اديب، دار الوثائق السودانية، ص 89،.
(43) علي المهدي، مصدر سابق، ص 89.
(44) أبو سليم، المرجع السابق، نص المنشور كاملًا في «الاثار الكاملة للإمام المهدي»، ص 207.

(45) Shefield Daily Telegraph , عدد السبت 1 اغسطس 1885, ارشيف الصحافة البريطانية.

(46) Hartlepool Mail، عدد 30 يوليو 1885، ارشيف الصحافة البريطانية.

(47) صحيفة Western Daily Press , عدد 19 اغسطس 1885، ارشيف الصحافة البريطانية.

(48) صحيفة York Herald، عدد 30 يونيو 1899، ارشيف الصحافة البريطانية.

(49) ونستون تشرتشل: حرب النهر، الناشر.. Mau Publising, نسخة الكترونية بتاريخ 2013، ص53-52.

(50) اي. بي. ثيوبولد، المهدية.. تاريخ السودان الانجليزي المصري 1881-1899، THE MAHDIYA: A HISTORY OF THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN,1881-1899، الناشر : Longman & green، 1965، لندن، ص 130.

(51) ريتشارد ديكميجيان ومارغريت وزموريسكي: كاريزما القيادة في الاسلام: مهدي السودان، جامعة نيوريورك، الولايات المتحدة، 1972، ص115.

(52) Richard H. Dekmejian and Margaret J. Wyszomirski (1972). Charismatic Leadership in

(53) Islam: The Mahdi of the Sudan. Comparative Studies in Society and History.

(54) ناصف بشير الأمين، المرجع السابق، ص115.

(55) وهبة الزحيلي، تجديد الفقه الإسلامي ص220.

(56) محمد أحمد الشامي، بحوث ندوة الاجتهاد في الإسلام التي نظمتها وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان، ص311.

(57) أحمد بن حمد الخليلي، بيان أثر الاجتهاد والتجديد في تنمية المجتمعات الإسلامية المعاصرة, ص-46 447.

(58) أبو الفضل عبدالسلام بن محمد بن عبدالكريم، التجديد والمجددون في أصول الفقه – دراسة موسعة لجهود المجددين من علماء الأصول تنتهي إلى استخلاص منهج إصلاحي سديد، ص43، الطبعة الثالثة 1428هـ-2007م مكتبة المسجد النبوي الشريف رقم الكتاب109709، تاريخ التسجيل20/5/ 1431ه.

(59) محمد الخير عبد القادر، نشأة الحركة الإسلامية الحديثة في السودان1946م – 1956، الدار السودانية للكتب – الخرطوم، ص211.

(60) ناصف بشير الأمين، المرجع السابق، 196.

## المصادر والمراجع:


(1) ابراهيم فوزي، السودان بين يدي غردون وكتشنر، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة.

(2) أبو الفضل عبدالسلام بن محمد بن عبدالكريم ، التجديد والمجددون في أصول الفقه – دراسة موسعة لجهود المجددين من علماء الأصول تنتهي إلى استخلاص منهج إصلاحي سديد، الطبعة الثالثة 1428هـ-2007م مكتبة المسجد النبوي الشريف رقم الكتاب 109709 تاريخ التسجيل 20/5/ 1431ه.

(3) أحمد المسلماني، صحيفة الوطن، الثلاثاء 2015-06-16.

(4) أحمد بن حمد الخليلي، بيان أثر الاجتهاد والتجديد في تنمية المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

(5) أحمد ود سليمان، خطابات المهدي، بتاريخ اوائل شعبان 1885 الموافق مايو 1885.

(6) الصادق المهدي، يسألونك عن المهدية، دار القضايا، بيروت، 1975.

(7) "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة». 1/310. ط الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض. 1424هـ.

(8) جوزف اورفالدر، عشرة سنوات من الاسر في معسكر المهدي، ترجمة عوض أحمد الضو، 2008.

(9) ريتشارد ديكميجيان ومارغريت وزموريسكي، كاريزما القيادة في الاسلام: مهدي السودان، جامعة نيويورك، الولايات المتحدة،1972.

(10) شوقي إبراهيم عثمان، محمد أحمد المهدي وفك الاشتباك، صحيفة الرواكبة، 2011-1-7.

(11) صديق محمد أحمد البادي، لمحات من حياة وثورة ومدائح الثائر البطل عبد القادر ود حبوبه، دار الأيام للطباعة والنشر.

(12) عبد الرحمن إبراهيم الحلو، الخليفة علي ود حلو صاحب الراية الخضراء، شركة مطابع السودان للعملة، الخرطوم 2012.

(13) عبد المحمود أبو شامة، من ابا الي تسلهاي، المطبعة العسكرية، ام درمان 1987.

(14) عبد المحمود أبّو، الندوة الرابعة عشر تطور العلوم الفقهية- فقه العصر مناهج التجديد الديني والفقهي، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، سلطنة عُمان، 5- 8 أبريل 2015م، مسقط.

(15) عبد الودود شلبي، الاصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته، دار المعارف، القاهرة 1979.

(16) عصمت زلفو، الخليفة (السنوات الاولي 1885-1846)، دار كرري للطباعة والنشر، ام درمان 1994.

(17) ـــــــــــــ كرري: تحليل عسكري لمعركة ام درمان, المطبعة العسكرية ام درمان، 1973.

(18) علي شلش، جمال الدين الافغاني بين دارسيه, دار الشروق, القاهرة 1987.

(19) عمر سالم عمر بابكور، الدعوة في السودان وتأثرها بالدعوة السلفية، دراسة تاريخية وثائقية "، جامعة أم القرى - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - قسم التاريخ الإسلامي.

(20) كمال بكديللي، الدولة العثمانية من معاهدة قينارجه الصغرى حتى الانهيار، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، الجزء الأول، اسطانبول، 1994.

(21) محمد إبراهيم ابو سليم، مفهوم الخلافة وولاية العهد في المهدية، مركز ابو سليم للدراسات، الخرطوم، 1989، عرض، يحي محمد ابراهيم.

(22) -محمد أحمد الشامي، بحوث ندوة الاجتهاد في الإسلام التي نظمتها وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عمان.

(23) محمد المصطفي موسي، في الذكري130 لوفاة الامام محمد احمد المهدي.. قائد الثورة المهدية في السودان.. وثائق غائبة ام مغيبة!، الحوار المتمدن، العدد4844، 2015/6/21.

(24) محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث 1955-1820، الطبعة الثانية، مركز عبد الكريم ميرغني، الخرطوم، 2002.

(25) محمد عبدالرحمن المرعشلي، اختلاف الاجتهاد وتغيره وأثر ذلك في الفتيا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، بيروت2003.

(26) محمد عمارة، «تيارات الفكر الإسلامي». جريدة الأهرام المصرية في عددها بتاريخ 20/10/1967.

(27) موسى عبد الله حامد، تبصرة وذكري، سياحة في راتب الامام المهدي، الدار السودانية للكتب, الخرطوم 1997.

(28) ناصف بشير الأمين، الثورة المهدية الأخرى: او الإمام المهدى الذي مازال غائبا، في رحاب الذكرى 130 لرحيل الإمام المهدي، صحيفة الرواكبة، 2015-23-06.

(29) Shefield Daily Telegraph ,1 اغسطس 1885, ارشيف الصحافة البريطانية.

(30) Hartlepool Mail، عدد 30 يوليو 1885، ارشيف الصحافة البريطانية.

(31) صحيفة Western Daily Press ,عدد 19 اغسطس 1885، ارشيف الصحافة البريطانية.

(32) صحيفة York Herald ، عدد 30 يونيو 1899، ارشيف الصحافة البريطانية.

(33) ونستون تشرتشل: حرب النهر، الناشر.. Mau Publising, نسخة الكترونية بتاريخ 2013.

(34) اي. بي. ثيوبولد، المهدية.. تاريخ السودان الانجليزي المصري 1881-1899، THE MAHDIYA: A HISTORY OF THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN,1881-1899، الناشر: Longman & green، 1965 ، لندن.

(35) -Richard H. Dekmejian and Margaret J. Wyszomirski (1972). Charismatic Leadership.

(36) Islam: The Mahdi of the Sudan. Comparative Studies in Society and History.